

شاهق هو الموت ..

شاهقٌ وعميقٌ.. وبأخذ بتفاصيل حزنك ناحيته بصورة لا تملك ردها..

ليست من خريطة واضحة عندي وأنا أودع أُمي الوداع الأخير، ما زالت الرؤية مشوشة فلا وجهة للحزن بداخلي سوى الحزن بكل مداراته الحزينة ..

شعور يشبه نكء الجرح باستمرار دون قدرة لوقف نزفه .. تتغير تفاصيل الحياة لديك في محطته، فلا تعود الأمور كما كانت عليه .. إنه أمر يشبه أن تسخر من الحياة أو تسخر منك الحياة، تختزل العمر في لحظة الفقد كما يليق بحبس أنفاس ضعيفة في صندوق خشبي مسدودة منافس الهواء فيه .

كنت أراها بكل حالاتها زاهية بخطواتها، تضحك للحظات من العمر، فتقفز السنوات وتكبر دون تمهل ما تمنحه لها، ترسم اللحن صورتها بذاكرتي، صغيرة، فتية، متفتحة تسقي النهارات على مروج العمر، منطلقة بعافيتها وحجم مسؤولياتها، تحضر قنينة حليب لأحد صغارها، تعبر كبرق خاطف بفسطان أزرق مكحل الزوايا بالورود الندية .. تجمع ضحكتها العفوية، لحظاتها السريعة، مشاعرها المختلفة، غضبها غير المكتمل وأمانيتها المستقبلية، تخلق لحظة اكتمال لرسمه تخطها بتطلعاتها في توجيه خريطة قبيلة من الأبناء رزقتهم، لا تبتغي خيبة الفقد فيهم، ولا بأحد منهم، لكن العمر يباغتها بما تخشاه، أراها بمشهدية الحدث وأنا صغيرة بقربها، تمسك القلم بيدي وهي التي لا تجيد كتابة الحروف لتدفعني لأواصل حل واجباتي بوقت متأخر، أراها صادة رادة، تحلم وتتمنى، تحزن وتتألم ، وتبتسم ضاحكة، أعرف تلك الابتسامة لازالت حاضرة بذاكرتي، فتية في بريق عينيها .. وتمر لحظات من العمر، من سنوات الألم والفقد تبرق خاطفة بها، تشيخ فجأة دون طفولة عاشتها، تسرق منها ابتسامتها وأمانيتها، تقرب وتبعد، تغالب الشوق ومواقع الحياة، وتفقد أحبابها تباءً، فيرحلون مع مغيب الشمس، فتصمت أُمي، تصمت طويلاً كأن الأمر أكبر من دفعه بمجرد كلمات، تخب رؤيتها كثيراً وتنهزم بمعارف ومواقف وتزداد صمتاً، تخشى أن لا يلحق جسدها بعقلها أمام حركة التسارع هذه فتزداد صمتاً .. كأن صمتها يخبرنا بأنّ العالم أقل قدرًا مما يستحق .. تطوف بي صورها المتناثرة في ذاكرتي، تعود من ليالي القدر مضمخة بعطر القبول، باسمه متهللة بصلاة تؤديها وأدعية من النور تتلوها وتسايح تنشدها وبركة حضور تحملها بمسبح يتهلل في يديها ..

شاهق هو الموت .. شاهق وهو يفقدك الأحبة واحداً تلو الآخر، فيضيعون في زحامه تباءً، لطالما

كانت تردد جملتها هذه : " نحن أموات وأبناء أموات، كلنا مغادرون ومرجعنا بالآخر "

هاهي تنطفئ فجأة، تسافر سفر الموت، تحترق كورقة أشعلها عود ثقاب في ثوان معدودات، دون فرصة للتوقف، للعودة، للمفاوضات، الجسد الناصح بالحياة يزوي، الذهن منعزل في حضوره، الحديث مغلق، وبقي

الذِّفَّاس يعلو بصدرها لمسافة ضيقة، أراقبه يصعد، وأخشى من اللا عودة في ارتداداته، تأملتها صفراء هشة كورقة خريف استعجلتها طقوس الحياة في حضن الموت، ترتجف من لملته فيها، جسدها ضئيل لا يكاد يشبهها، ملامحها تعود لطفلة أرعبتها الحياة فقررت القفز منها ناحيته دون عودة، ناضحة بلحظاتها الأخيرة بعرق الموت يبلل فراشها دون توقف .. أقترب منها بقلق أحاول استكشاف ألمها لأجسه، فأنا الشخص الذي تبدو الحياة في نظره رغم قسوتها ممكنة الاحتمال بوجود الأم ..

أقف بدهشة مربكة .. أتحسس ضعف جسدها .. رقة جلدها .. دقة عظمها، تهاوي الحياة فيها .. أراقب عينيها الغائرتين .. وأبحث عن صباها في التماعتهما، أخاطبها بوجل "أمي"، ليت بي ما تجدين ولا بك، فتهتز وجنتاها باختلاجات سريعة وهي في حضرة الموت، كأنها تقول فداكم أنا وعمري ..

تآكلت أمي من الداخل لكثرة الأشياء التي لم تقلها ولم تفعلها، لكنها كانت تضيق للآخرين، تضيق حتى بدت لنا كالبدن في السماء .. غابت ضحكة أمي التي تواسي الحزن في قلبي، غابت عنا المرأة التي تأنس بالهوامش وتسعدها بساطة الحياة فلا تميل لتعقيداتنا، وتحن إلى الظل دوماً ولا تعشق الضجيج .. تجول القصص في عينيها .. وتشعر بحظ الفرح الكبير حين تقابل أحبابها في منعطفات الحياة صدفة كفيضان كوب امتلأ بالمطر ..

غادرتنا واختفت صفرة المرض من وجهها، واختفى ثقل الحزن من عينيها، كانت مضيئة .. نيرة الوجه .. طالعها التيسم .. كان يومها قصير كشجرة غريبة اخضرت ومنحت ثمارها زاهية مشتهية، ثم جفت واحتترقت .. جاء الأمر هكذا سريعاً بلا توان، غابت أمي فامتسع سواد الحزن في قلبي وشاهدت طقوس موتها حتى لحظة دفنها، غابت وكأنها بغيابها تخبرني أن هذا العالم ليس لنا .. كان الأمر أشبه بحلم، نسا فر به في اللحظات المحرجة، حلم نلتقي فيه بذكرياتنا القديمة، لكننا نعرفها، لأنها تشبهنا في عمقها ..